القسم الثاني

الفصل الثامن

كاثاى ـ خيتاى (٢)

تختلف الحالة فى وراء السد العظيم اختلافا واسعا عما هى فى آسيا العليا . هنالك مدنية قديمة يرجع عهدها الى خمسة آلاف عام ، وسجلات مخطوطة تعود الى ثلاثين عصرا من الماضى، وهناك عاش اناس قضوا ايام حياتهم فى التفكير وفى القتال معا.

كان اجداد هؤلاء الناس من الرحل فى زمن من الازمان، شعبا يمتطى الجياد، قديرا فى الرمى بالقسى، ولكنهم استكنوا ثلاثة آلاف عام، ولم ينزحوا او يرحلوا ، فشيدوا المدن واستحضروا. ويمكن الاتيان بالكثير من الامور فى تلك المدة الطويلة من الزمن، فقد تكاثروا فى خلاله تكاثرا عظيما . واذا تزايد الناس وزاحم بعضهم البعض أقاموا السدود والاسوار من حولهم ، ثم تفرقوا فيما بينهم الى شيع، وطوائف، وفرق، وصنوف من البشر .

أجل، ان الناس فى وراء السد العظيم كانوا على خلاف ما كانوا عليه فى (كوبى)، اذ كانوا رقيقا، وقرويين، وعلماء، وجنودا، وشحاذين، وحكاما، ورؤساء، وامراء وكان لهم امبراطورهم على مر السنين؛ وهو ابن السماء «تيەن ـ تسى» ولهم مجلسه ؛ وهو غيوم السماء .

وفى سنة ١٢١٠ ، سنة الحمل فى تقويم الحيوانات الاثنى عشر، كان يعلو العرش امبراطور من السلالة الذهبية او الـ(شن) (٦١)، أما المجلس او الديوان فكان فى (يەن ـ كينغ) بالقرب من (يەكينك) الحالية.

وكانت (كاثاى) كالمرأة العجوز، غارقة فى افكارها وتأملاتها، مرتدية ازدية متقنة الصنع يحيطها الكثير من الابناء دون ان يجلبوا وعيها وانتباهها. هذا، وقد تظمت ساعات نهوضها ونومها. كما انطلقت بها العجلات التى تحفها الخدم، وهى ترتل مرددة صلاة الاموات.

والملابس فى (كاثاى) من الحرير الخام، الوانه عديدة. اما الرقيق فقد تشاهدهم حفاة، ولا يلبسون الا اللباس القطنى. والمظلات تظلل رؤوس الموظفين الكبار، محمولة لهم. وقد اسدلت فى مداخل بيوتها ستائر تمنع تسرب الشياطين المتشردة اليها. أجل انها احنت الرأس الى ما جاء فى كتاب الطقوس، وسعت للانصياع اليه بحذافيره.

وانحدر قبل عصر واحد برابرة الشمال، الكاثائيون والشينيون انفسهم، فاختلطوا بين كتل البشر العظيمة فيما وراء السد. وبمرور الزمن قلدوا عادات كاثاى وتمثلوا بها، ولبسوا ملابسها، وانقادوا الى تعاليم كتبها.

وفى مدن (كاثاى) بحيرات نزهة وطرب، يطوف فيها زوارق تحمل الرجال ومعهم خسرة الرز مستمعين الى رنات اجراس فضة فى يد امرأة. وقد ينسابون الى داخل صومعة يعلوها سقف قرميدى، او يصغون الى اصوات منبهات المعابد.

لقد درسوا كتب البامبوو المدونة فى عهود غابرة غائرة نستها الدهور؛ وناقشوا ايام (تانغ) الذهبية فى ولائم طويلة الامد.

وقد كان رجال الـ(شن)، رعية السليل المتبوء على العرش وخدمه. وقد سيطرت عليهم العنعنات وعلمتهم بان الواجب الاسمى هو الطاعة الى السلالة ليس الا . هذا وقد تجدهم كما كان فى عهد الاستاذ كوونغ ؛ (كونفوشيوس) يصرخون عندما يمر الموكب والامبراطور فى عجلته ومحظيته بجانبه، والحكيم من خلفهما:ـ «ها هى، ها هى الفضيحة فى الامام، والفضيلة فى الخلف . ».

وقد تجد شاعرا متشردا غارقا فى سوانحه، مخلوبا بجمال انعكاس ضوء القمر على وجه النهر يسقط فى الماء فيغرق، ويغدو شاعر القدر ليس الا . فتحين الفرص للغدر من الخصال التى دأب عليها الناس ، وليس للوقت من قيمة فى (كاثاى).

او انك تجد رساما قانعا يكتفى بلمس الحرير بنتف من الالوان، فيرسم

طائرا على غصن، او ذروة تكللت بالثلوج. فتصاويره لمسات ناعمة من الطبيعة، ولكنها لمسات كاملة الايقاع.

او انك ترى المنجم على سطحه، تكتنفه الكرات النحاسية والمزاول، وهو يدون كل حركة من حركات كوكب من الكواكب. وهذا هو منجم الحرب غارق بافكاره وتنبؤاته. واليك نبذة من آدبهم :

«والآن لا يسمع صوت طير من الاسوار الصامتة، فالريح وحدها تصفر في الليلة الليلاء، حيث تهيم اشباح الموت الكئيب، واضواء القمر الخافتة تلمع فوق الثلوج المتساقطة. وخنادق الاسوار تجمدت فيها الدماء والاشلاء، وقد ايبست الثلوج لحاها. وخلت الكنانات من الاسهم، وتقطعت اوتار القسى، وانتهكت قوة جواد الحرب. هذه هي مدينة (هان ـ لى) في قبضة الاعداء . .»

وهكذا يرى المنجم مشهدا في الموت ذاته، فيعلن الخنوع . وهذا كل ما ورثته (كاثاى). وكان للكاثائيين، الآليات من وسائل الحرب، فهي عجلات قتال يجرها عشرون جوادا وهي وان كانت قديمة الا انها مازالت قادرة على رمى الاحجار، واقواس متقاطعة لا تلويها قوة عشرة رجال، ومناجق يجر حبالها القاذفة مئة مدفعي، كما وكانت لديهم النيران الطائرة، والنيران التى تقذف من سبطانات من (البامبوو).

وشن الحروب فن في (كاثاى) منذ الايام الاول التى جالت فيها الالوية المدرعة وعجلات القتال في فيافي آسيا . وقد نصبوا معبدا في المعسكر ليتزوى فيه القائد فيتأمل خططه دون تداخل او ازعاج. ولم يفتقر اله الحرب (كووان ـ تى) في يوم ما الى المتضرعين المتطوعين. فقوة (كاثاى) كانت كامنة في جموعها المتدربة المنقادة الى النظام، وفي منابع الحياة البشرية التى لا تنضب. أما فيما يتعلق بضعفها فقد كتب قبل سبعة عشر عصرا احد القادة الكاثائيين منذرا بالويل، فقال :ـ

«يجلب الوازع البؤس والدمار على جيشه، اذا أراد ادارته كما تدار

المملكة وهو جاهل بمداخل الجيش، ومايجابهه من أمور. وهذا ما يسمى بعقر الجيش، وهذا يورث القلق فى الجنود.

«واذا اضطرب الجيش واضاع اعتماده عمت الفوضى والقى النصر بعرض الحائط.» وضعف (كاثاى) كان فى امبراطورها، الذى استكن فى (يەن‌كينغ) تاركا مهام القيادة على عاتق امرائه. اما قوة الرحل خارج السد فكانت فى دهاء خانهم العسكرى الذى لم يتخل عن قيادة الجيش لغيره.

وكان موقف جنكيز خان يضاهى المضاهاة كلها موقف (هانيبال) فى ايطاليا. اذ كان عدد محاربيه محدودا ، وانكسار حاسم واحد مما يرجع بالرحل الى قفارهم. والنصر المبتور لا يعد ظفرا . وعليه يقتضى ان يكون نجاحه حاسما دون ان يخسر الكثير من قوة جنده. وكان عليه ان يعبىء ويحرك فرقه لمنازلة جيوش يقودها أسياد التعبئة .

وفى الوقت ذاته، وهو فى (قارا قووم) كان «القائد قاهر الثوار»، وكان لا يزال من رعايا الامبراطور الذهبى.

وفى الماضى عندما كان نجم (كاثاى) يتألق فى العلياء، فرض ملوكها الجزية على الرحل القاطنين خارج السد. ولكنهم فى ايام خفوت ذلك التألق صاروا يهدونهم الفضة، والحرير الخام، والجلود المدبوغة، واحجار اليشب المنقوشة، ويرسلون لهم القوافل المحملة بالحنطة والخمور؛ وكل ذلك ليأمنوا شر غاراتهم. وسلالة (كاثاى) اظهارا لعزها وسلطانها، او بالاحرى سترا لعارها وشنارها، كانت تنعت هذه الرشوات بالهدايا. اما فى عهد قوتهم وسلطانهم فقد سميت الاموال التى طلبت من الخانات الرحل، بالاتاوات والجزيات .

والعشائر الضاربة لم تتناس تلك العطايا الثمينة، ولم تنس الابتزازات المضجرة التى كان يبتزها الموظفون الكاثائيون، والحملات الغادرة من شعب «القبعة والزنار» القاطنين وراء السد العظيم . وهكذا نجد ان شعوب (كوبى) الشرقية كانوا فى ذلك الوقت من رعايا الامبراطور الذهبى اسميا ويحكمهم صوريا حاكم الاهوار الغربية المتغيب عن مركز حكمه على الدوام .

ادخل اسم (جنكيزخان) فى قائمة الموظفين بعنوان «القائد قاهر الثوار» وبعد حين، قلب كتاب (يەنكينغ) صفحات السجلات فأرسلوا الرسل اليه ليجبوا منه أتاوات الخيل والمواشى. ولكن الخان أبى، ورفض الجزية.

ألاتدرك ان هذا الوضع، وضع صينى عريق فى صينيته ؟ اما طور (جنكيزخان) الذى كان متخذه فيمكن وصفه بكلمتين هما : ترقب الفرص.

وفى خلال معاركه فى (كوبى) جابه السد العظيم، فتأمل عميقا فى هذه المانعة المشيدة من الاحجار والآجر، وفى قلاعه الشامخة فوق ابوابه ، وقننها المهيبة التى يتمكن ان يطارد عليها حضرا ستة فرسان فى نسق واحد.

وبعد ردح من الزمن، أخذ لواؤه يرفرف على باب بعد باب من ابواب السد على طوار المحيط الاقرب منه. ولم يهتم كل من حاكم الاهوار الغربية والامبراطور الذهبى لهذا الحادث ، اى اهتمام. ولكن عشائر الحدود الساخرين القاطنين فى افياء السد، وهم فى خدمة سيد (كاثاى) فى رحلات قنصه، لاحظوا عمل الخان الجرىء فأيقنوا بأن الامبراطور الذهبى اصبح يخشى الرئيس الرحال.

فهذا هو الموقف، شاءوا ام كرهوا. ولم يتبادر الى بال الملايين من الكاثائيين القابعين فى مدنهم المسورة ان يتعرضوا الى غزو جمع مؤلف من ربع مليون محارب. الا ان الامبراطور الذهبى فى خلال حروبه المستمرة مع بيت (سەنغ) العريق فى الجنوب فيما وراء (يانغتزى) «ابن بحر المحيط» ارسل رسلا آخرين الى المغول يطلب معاونة الفرسان الرحالة لهم.

فاعاره (جنكيزخان) من فوره الفرق العديدة، وكانت هذه الفرق الخيالة بقيادة (جەبە،نويون) وغيره من الاراخنة. واننا نجهل ما انجزه هؤلاء من الاعمال الى الامبراطور الذهبى . الا اننا نعلم انهم كانوا يقظين فى سفرتهم هذه، يستطلعون ويستفهمون .

وانهم كانوا يتصفون بالكفاية البدوية التى تحليهم بتذكر العوارض الارضية، وتفاصيلها. وعند رجوعهم الى مضارب قبائلهم فى (كوبى)، رجعوا

ومعهم الرأى الوسيع فى طبيعة (كاثاى) الارضية، والقصص عن الغرائب، والنوادر، رجعوا وقالوا ان الطرق فى (كاثاى) تمر من فوق الانهر على ركائز صخر ثابتة فى الماء ، ودكات خشب عائمة عليه، وان المدن الكبيرة مسورة بجدران عالية لا يطفرها الجياد.

والناس فى (كاثاى) يرتدون الاردية المصنوعة من قماش التنكين والحرير المنون، وحتى الرقيق منهم يملكون ما يقارب السبعة اردية. والشعراء الشباب يسلون الناس عوضا عن المنشدين والمغنين لا بترديد قصص الابطال واساطيرهم، بل بقراءة كلمات منقوشة على قطع من الحرير، والكلمات هذه، تصف النساء وجمالهن . فكل شىء كان عجيبا.

وكان ضباط (جنكيزخان) متلهفين للحملة على السد العظيم. ولكن الخان، كان يرى ان قيادة قبائله الضارية للغارة على (كاثاى) فى ذلك الحين تطمينا لرغبات ضباطه انما هى الكارثة عليه، والمصيبة على الوطن فى الوقت ذاته. فلو ترك امبراطوريته الحديثة وراءه، وتعرض الى الخيبة والانكسار فى الشرق فى (كاثاى)، لما تردد اعداؤه الآخرون اقل تردد فى الحملة على موطن المغول.

فهو الان، سيد صحراء (كوبى)، ولكنه اذا نظر شطر الجنوب، والجنوب الغربى، والغرب لتماثل أمامه ثلاثة اعداء. فعلى طوار (نان ـ لوو)، طريق القوافل الجنوبى، تقع مملكة (هه يا) العجيبة، المنعوتة بمملكة اللصوص. وهنا يقطن التبتيون الهزلاء السلابون، وقد انحدروا من التلال لسلب الكاثائيين واقلاق راحتهم وطمأنينتهم. والى ما ورائهم يمتد سلطان (كاثاى) السوداء، وهى امبراطورية جبلية . اما فى الغرب فنجد الـ(قيرغيز) الطائشين الذين ابتعدوا عن المغول حتى ذلك التاريخ.

اوفد (جنكيزخان) على كل من اعدائه المزعجين هؤلاء الفرق الخيالة من جيشه بأمرة الأراخين. وقد غزا بلاد (هه يا) شخصيا عدة غزوات، فكانت حروب غارات فى أرض مكشوفة، ادرك بها رؤسا (هه يا) ان الصلح مع الخان هو من صالحهم. وقد ادعموا هذا الصلح او هذا السلم بروابط

الدم، اذ زفوا اليه احدى نساء العائلة المالكة. وقد انشأ الخان علاقات وروابط اخرى فى الغرب. وهذه تدابير اراد بها الحيطة. واذا اردنا ان نعبر عنها باللغة العسكرية فنقول انه أمن بها اجنحته او جوانبه. وكل ذلك اكسبه تحالف الرؤساء معه، وقوة الرجال المستجدين للانضمام الى حشوده وتعزيزها، كما واكسبت جموعه ذاتها الاختبارات القيمة فى العراك.

مات سيد (كاثاى) فى هذه الآونة، وتبوأ ابنه عرش التتين. وهو ملويل القامة ذو لحية لها هيبتها، له هواية خاصة بالتصوير والصيد. وقد اختار لنفسه لقب (واى‌وانغ) وهو عنوان مهيب فى غير موضعه.

نظم رجال (كاثاى) فى حينها قائمة بطلبات الجزية للملك الجديد. وارسلوا ضابطا الى نجود (كوبى) لجمع الأتاوة من (جنكيزخان). وقد استصحب هذا الضابط معه برات ملوكية السيد الوازع الجديد (واى وانغ). والمفروض ان يستلم (جنكيزخان) هذا الامر الملكى جاثيا. ولكن المغولى مد يده له وهو قائم فاخذ الامر، ولم يسلمه الى مترجم ليقرأه، ثم سأل :ـ

«ومن هو الامبراطور الجديد ؟» فأجابه الضابط الجابى : «انه واى وانغ».

وعوضا عن ان يحنى الخان رأسه نحو الجنوب اجلالا، امتهن الامر باصقا وقال : «كنت اعتقد ان ابن السماء يجب ان يكون رجلا خارقا. ولكن معتوه كـ(واى‌وانغ) لا يستحق العرش. فلم الخضوع له ؟ . .»

قال ذلك وركب جواده وولى. وفى تلك الليلة استدعى الأراخين الى سرادقه واستدعى معهم حلفاءه الحديثين : اى ال (اى‌دى‌كووت) الصقور المنقضة، والسيد الاسد رئيس الاتراك الغربيين. وفى اليوم الثانى استدعى الرسول للمثول بين أيدى الخان فسلموا له الرسالة ليرجع بها الى الامبراطور الذهبى، وخاطبه المغولى قائلا :ـ

«لقد اصبحت الآن مملكتنا على اسس قويمة تمكننا من زيارة (كاثاى). فهل مملكة الامبراطور الذهبى كفوء لاستقبالنا. اننا سنذهب اليه مع جيش كالبحر الزاخر ولا يهمنا اذ استقبلنا مسالما او محاربا. فان اختار الخان

الذهبى صداقتنا سنسمح له بالبقاء فى حكومة مملكته تحت رعايتنا، اما اذا اختار الحرب، فالحرب ستستمر مستعرة حتى ينتصر احدنا، وينخذل الآخر . .»

ايمكن تصور رسالة اهانة اقسى من هذه ؟ . فالظاهر ان (جنكيزخان) قد قرر ان الوقت قد حان للتعرض. ويحتمل انه كان يشعر بان الامبراطور الشيخ ما دام حيا، فهو فى عهد وحلف مع (كاثاى)؛ اما مع (واى‌وانغ)، فليس ثمة من علاقة، وان الحلف قد انتهى

رجع الرسول الى (يهن ـ كينغ) حيث ديوان (واى‌وانغ). فغضب الـ(واى‌وانغ) للرسالة التى حملها الرسول (*). وسألوا عامل الاهوار الغربية عما يفعله المغول فأجابهم انهم دائبون على صنع النبال والسهام، وجمع الخيل. وقد زجوا العامل فى السجن لجوابه. والحقيقة مرة.

اخذ الشتاء ينقضى والمغول دائبون على صنع السهام وجمع الخيل . ومن سوء حظ الامبراطور الذهبى انهم عملوا اكثر من ذلك . اذ ارسل (جنكيزخان) الرسل والهدايا الى رجال (لياو ـ تونغ) فى الناحية الشمالية من (كاثاى) وهو يعلم ان اولاء الرجال محاربون لم يبرح عن بالهم ما اصابهم من قهر من امبراطور ذهبى سابق.

قابل الوفد أمير سلالة (لياو)، وعقد حلفا بين الفريقين، فمصت الدماء من الاوردة وكسرت السهام توقيعا وتأييدا للحلف. فرجال (لياو)، او بالمعنى اللفظى : رجال الحديد، سينقضون على شمال (كاثاى)، ولقاء ذلك سيعيد لهم خان المغول جميع ممتلكاتهم. لقد كان حلفا انصاع اليه (جنكيزخان) الانصياع الكلى، اذ نصب اخيرا امراء (لياو) حكاما على (كاثاى) تحت رعايته.

(*) جاء فى بعض المراجع بان جيش (شينى) ارسل للهجوم على اقرب عشيرة فى (كوبى) . وهذا محتمل كل الاحتمال. اذ اننا نجد ان (جنكيزخان) حارب خارج السد قبل توغله فى امبراطورية الـ (شين) ومدنها.

الفصل التاسع

الامبراطور الذهبي

هذه هي المرة الاولى التي سارت بها القبائل الرحالة لغزو دولة مدنية ذات قوة عسكرية تتفوق عليهم تفوقا عظيما. وها اننا نرى (جنكيزخان) في ميدان الحرب دائبا على ادارتها.

لقد اوفد العيون والارصاد من قبائل (كوبى) قبل جين، والجواسيس منهم والمحاربين ليعودوا بمن يأسرونهم من المخبرين. وقد توغل هؤلاء في ما وراء السد العظيم.

وبعد هذه العيون سارت رؤوس النفائض، وكل منها مؤلف من مئتي خيال منتشر ازكاء على ساحات واسعة من الارض. وعلى بعد مسافة لايستهان بها من هذه النفائض، تقدمت المقدمة وهي مؤلفة من ثلاثين الف محارب مغوار على جياد قوية، وقد خصص لكل محارب جوادان على الاقل، اى ثلاث فرق خيالة بامرة ثلاثة من عمداء الخان وهم (موهوولى) الباسل و(جه‌به‌نويون) المرعب و(سوبوتاى) الفتى العجيب.

وعقب المقدمة، السعاة وقطعات الارتباط لتأمين الاتصال الشديد بين المقدمة والقسم الاكبر المؤلف من حشود القبائل ، وقد زحف على النجود القاحلة والنقع الكثيف يتعقبه. وكان هذا القسم الاكبر، وهو قلب الجيش، مؤلفا من مئة ألف محارب واكثرهم من المغول الـ(يالاكا) الذين عركتهم الحروب وحنكتهم المعارك. اما المجنبتان الميمنة والميسرة فلم تقل قوتهما عن قوة القسم الاكبر الذى جعل الخان مقره فيه وقد استصحب معه ابنه الاصغر لتدريبه.

وكما كان لنابوليون، كان لجنكيزخان حرسه الامبراطوري، وهو مؤلف من الف فارس (*) على جياد دهم مدرعة بدروع جلد. ويحتمل ان جيشه في حملته الاولى هذه التي استهدف بها (كاثاى) في عام ١٢١١ ، ما كان على هذه الوفرة من الرجال.

(*) جاء في مقدمة كتاب جنكيزخان لـ(ف. يان) ان قوام هذا الحرس كان عشرة آلاف، اى فرقة كاملة. ـ المترجم.

اجتاز الجيش البادية واقترب من السد العظيم دون ان يصد تقدمه صاد، ودون ان يفقد او يخسر محاربا • وقد قضى (جنكيزخان) قبل ذلك ردحا من الزمن فى اخضاع عشائر الحدود وقد فتح له المنحازون اليه احد ابواب السد •

وبعد ان اجتازت فرق المغول السد، تفرقت وتوغلت فى مختلف انحاء (شان ـ سى) و (شيه ـ لى) تنفيذا للاوامر الحاسمة التى تلقتها قبلا• هذا وكانت خفيفة الاثقال لا تفتقر الى وسائل نقل ، ولا تعرف ضرورة قواعد التموين لهـا•

اما الخط الاول من جيوش (كاثاى) التى تحشدت لسد طرق الحدود، فكـانت تقـاسى قلـة المؤن والطعـام • وبحثت فرق خيـالة المغول عن قوات الامبراطور المبعثرة واكثرها من المشاة ، فغاروا عليها وهم على صهوات جيادهم المسرعة• فاثخنوا الطعن والرمى بالسهام فى ظهور كتل المشاة•

وتورط أحد الجيوش الرئيسة من جيوش الامبراطور فى متاهة مضايق وتلول صغيرة بينما كان يتحسس طريقه نحو الغزاة• فالآمر القائد وقد عهدت القيادة اليه حديثا، كان جاهلا الارض يستفسر طريقه من القرويين • ولكن (جه‌به،نويون) عدوه كان يزحف نحوه، متذكرا وعارفا طرق منطقته ووديانها المعرفة التامة• فسار فعلا نحو قوات عدوه ليلا واحاط بها فأصبح خلفها فى اليوم الثانى• ودمر جيش عدوه شر مدمر، وانهزمت فلوله الى الشرق حاملة معها الفزع والرعب الى القسم الاكبر من جيوش الـ(شين)•

وتردد القسم الاكبر لجيوش (كاثاى) وتذبذب بدوره وفر قائده نحو العاصمة • اما (جنكيزخان) فوصل (تائى تونغ ـ فوو) اول المدن الكبيرة المسورة واحاط بهـا، ثم اسرع واوفد فرقـه الى مدينة (يه‌ن‌ـكينغ) حيث الامبراطور •

ان الدمار الذى الحقه الغزاة ، وزحفهم السريع القيا الفزع والرعب فى نفس (واى ـ وانغ)• وخف صاحب عرش التنين الى الهروب من (يه‌ن ـكينغ) لو لم يردعه وزراؤه عن ذلك • وقد وقع الآن دفاع الامبراطورية

العظيم على عاتق (واى وانغ) كما هو المعتاد على الدوام فى الصين عندما يتعرض الشعب الى الاخطار . والجموع الزاخرة من الطبقة الوسطى ، وحشود السواد البليد المخلص ، وسليلوا الاجداد المحاربين كلهم لا يعرفون واجبا اقدس من صيانة العرش.

حطم (جنكيزخان) اول مقاومة مسلحة للكاثائيين بسرعة حارت لها العقول . واستولى بفرقه هذه على عدد من المدن، اما البلاط الغربى (تائى تووانغ ـ فوو) فما فتىء صامدا.

وجابه (جنكيزخان) الآن كما جابه (هانيبال) امام (روما) حيوية صلدة فى ساحة قتال تتمثل فيها الجلادة وقوة العزيمة. ها قد بدأت جيوش (كاثاى) الجديدة تظهر عند الانهر الكبيرة. واخذت حاميات المدن المحاصرة تتضاعف وتتزايد. اجل، انه اكتسح جنائن (يەنَ ـ كينغ) الخارجية ذاتها واجتازها . الا ان تقدمه توقف للمرة الاولى امام خط الاسوار المرتفعة الهائلة، وامام التلال والجسور ، وامام ذرارى قلاع متسلسلة متكتلة شامخة.

يظهر لنا انه ادرك الحيبة فى محاصرة هذه العوائق بمثل قوته الصغيرة، اذ نراه قد انسحب عنها من توه . وعند الخريف اشار الى ألويته بالرجوع الى (كوبى).

* * *

وفى الربيع الثانى، وبعد ان استعادت جياده قوتها ، ظهر ثانية امام الاسوار فوجد المدن التى استسلمت له فى المعركة الاولى، قد تحصنت بالحاميات فيها واخذت اهبتها للقتال راغبة فيه. فأنغمس مستأنفا العمل، واعاد تطويق البلاط الغربى بكامل جيشه .

والظاهر انه اتخذ التطويق فى هذه المرة اغراء واغواء ، اذ نراه كمن محاصرا! الاسوار منتظرا جيوش النجدة التى توفد لفك الحصار بغية تحطيمها. وقد ابادها كلها اقتربت منه . لقد اظهرت لنا هذه الحرب حقيقتين ؛ الاولى : هى ان خيالة المغول قادرة على المناورة حول الجيوش

الكاثائية فى الميدان ، وامحائها • والثانية : ان خيالة المغول لم تصبح حتى الآن فى مكانة من الكفاية تتمكن بها من اقتحام المدن المحصنة والاستيلاء عليهـــا •

الا ان (جه‌به،نويون) كان اهلا لذلك • لقد ضايق ستون الف محارب من الكاثائيين فى الشمال ، امراء (لياو) حلفاء الخان واحرجوا موقفهم، فأستنجدوا بالخان فأنجدهم بفرقة بامرة (جه‌به،نويون)، فطوق هذا القائد المغولى الحازم (لياو ـ يانغ) ذاتها من وراء القوة الكاثائية •

لقد خاب المغول فى تشبثاتهم الاولية ولم يقتطفوا ثمراتها ، الا ان (جه‌به،نويون)، لجأ كما فعل العميد (نه‌ى)، وهو عجول مثله، الى خدعة استغلها (جنكيزخان) فى معركة ميدان ـ وان لم يستغلها فى معارك الحصار ـ اذ تخلى عن جميع اثقاله وعجلاته وامتعته وتركها على مرأى من الكاثائيين ، وتراجع بخيالته متظاهرا بالخوف والفزع من جيش لهم قادم لتعزيزهم ، او متظاهرا باتخاذ الحيطة لمنازلته على قدر المستطاع •

اجل ، انسحب المغول واستمروا على انسحابهم البطىء مدة يومين متواليين، ثم غيروا جيادهم بجياد اقوى، ورجعوا حضرا فقطعوا مسافة اليومين بليلة واحدة «والسيف فى يد العنان» فوصلوا الى (لياو ـ يانغ) عند الفجر • اما الكاثائيون الذين اقتنعوا بانسحاب المغول وتباعدهم عنهم، فانشغلوا بنهب الامتعة وبنقلهـا الى داخـل الاسوار وابوابها مفتوحـة والجنـود مختلطون بالاهليين • لقد فاجأهم الغزاة المفـاجئة المريعة ، وباغتوهم المباغتة كلهـــا ، فأسفرت المباغتة عن مجزرة دامية ، عقبها اكتساح (لياو ـ يانغ) والاستيلاء عليهـــا •

أما (جه‌به،نويون) فاسترجع امتعته ، واغتنم اضعافها•

واصيب (جنكيزخان) بجرح وهو يضيق الخناق فى حصاره على الديوان الغربى ، فأنسحب جيشه من (كاثاى) ، وجرفه معه، كما يجرف الجزر ما على الشاطىء

لقد اصبح من المحتم على المغول إن يعيدوا الكرة على (كاثاى) فى كل ربيع ، فأخذوا يجمعون الجياد الجديدة فى كل مرة، ويعتمدون فى الصيف على البلاد التى يعيشون فيها فى تموين الرجال والحيوانات. اما فى الشتاء فالخيل لا تتحمل برد الصين الشمالية القارص ، هذا وهم يجابهون عدوا شديد المراس قوى الشكيمة . اذن ان موقفهم يقضى عليهم بالتباعد من عدوهم الى مسافة ما.

ولم يأت (جنكيزخان) فى الموسم الثانى، بعمل خطير الا قيامه ببعض غارات فيها الكفاية لاقلاق الكاثائيين، وسلب راحتهم.

لقد استكنت حربه الواسعة هذه ، وهى الاولى من نوعها، الاستكانة كلها . وهو لم يتمكن كما فعل (هانيبال) من ابقاء الحاميات فى المدن المحتلة من الامبراطورية . ولو فعل ذلك لكان نصيب جنوده الذين لم يتعودوا عند ذاك القتال من وراء الاسوار ، الدمار على ايدى الكاثائيين خلال الشتاء .

ان انتصاراته العديدة التى نالها فى الميدان بستر حركات جحافله ، وبتوحيدها فى المسيرات السريعة ازاء جيوش الكاثائيين لم تنتج الا دحر قوات العدو الى داخل الاسوار . وبعد ذلك اصبحت (يهن ـ كينغ) ذاتها ماثلة له فى تشبثه للانقضاض على الامبراطور ، الا انه، لايتمكن من دحر مالك الـ(شين) من القلعة التى يستحيل له اقتحامها تقريبا . هذا وفى الوقت ذاته كانت جيوش الـ(شين) تندفع ازاء رجال (لياو ـ تونغ)، وفرسان (هه يا) الذين كانوا يساندون جناحى الخان.

والمتوقع عادة فى مثل هذه الظروف من رئيس قبلى ان يترك الامور على ما هى ويقف امام الاسوار مع الغنائم التى سبق واغتنمها محتفظا بنشوة الظفر ، وكرامة النصر الذى حازه على قوات الـ(شين) العظمى . ولكن (جنكيزخان) الصلب بالرغم من جرحه، كان دائبا على اكتساب التجارب والاختبارات والاعتبار بها، فى الوقت الذى بدأ السخط والمقت يطغيان على الامبراطور الذهبى .

وفى ربيع ١٢١٤ عندما اعشوشبت الارض، تعاظم السخط والمقت فاصبحا خوفا وفزعا فى (كاثاى) • وهوجمت (كاثاى) من مختلف الجهات بثلاثة جيوش مغولية • ففى الجنوب استدار انجال الخان الثلاثة على قوس طويل المدى فى (شان ـ سى)، وفى الشمال عبر (جوشى) سلسلة (خين كان) والحق القوات برجال (لياو ـ تونغ)، ووصل (جنكيزخان) فى الوقت ذاته مع قلب الجيش الى ساحل المحيط فيما وراء (يەن ـ كينغ)•

وقامت هذه الجيوش الثلاثة بحركاتها على طريقة حديثة، اذ بقيت بعيدة عن بعضها البعض، واستقرت على محاصرة احصن المدن ؛ وهى تجمع الناس من الارياف وتدفع بالاسرى امامها فى هجماتها الاولى• وكثيرا ما فتح الكاثائيون المحصورون ابواب الاسوار للغزاة، وبعملهم هذا فى مثل تلك الظروف، نجوا من الموت• لقد لحق التدمير والتهجير كل شىء فى البراح خارج الاسوار، اذ دمر المغول المزارع واحرقوها، واغتصبوا القطعان والبهائم، وذبحوا الرجال والنساء والاطفال •

وعلى اثر نشوب هذه الحرب الماحقة، التجأ العديدون من امراء الجيش الكاثائى مع وحداتهم الى المغول، فأدمجوا بضباط (لياو ـ تونغ) فى المدن المحتلة•

والقحط والمرض وهما اثنان من فرسان سفر الرؤيا الاربعة الاشرار، عقبا آثار جياد فرسان المغول • ومرت فى الآفاق ارتال الجيوش المدربة ، والعجلات الوفيرة التى لا تحصى، وقطعان الجاموس، والاعلام المقرنة •

وعندما اوشك موسم الحرب يقترب من نهايته، اكتسحت الامراض ما اكتسحته من الجيش • وهزلت الجياد وضعفت • وعسكر (جنكيزخان) مع قلب الجيش بالقرب من اعالى اسوار (يەن ـ كينغ)، وضباطه يتوسلون اليه طالبين الحملة على المدينة•

رفض طلبهم ، ولم يصغ لهم • ولكنه ارسل رسالة الى الامبراطور الذهبى جاء فيها :ـ

«وماذا تفكر الان بالحرب المستعرة بيننا ؟ لقد اصبحت جميع المقاطعات شمال النهر الاصفر فى قبضتى، وانى ذاهب الى موطنى. ولكن هل تستسيغ ان يرحل ضباطى دون ان ترسل لهم الهدايا لتهدأتهم وتطييب خواطرهم؟»

ان هذا لطلب عجيب فى بابه ، وهو فى الوقت ذاته ضربة مهينة من كياسة المغولى فى سياسة الامر الواقع. فلو لبى الامبراطور الذهبى الطلب، فالمغولى سيكرم ضباطه ويهدىء فيهم النفوس، وهو يطعن كرامة عرش التين، بتلك التلبية، طعنة نجلاء.

وطلب بعض المشاورين الكاثائيين المطلعين على موقف الغزاة غير الواهن، من الامبراطور ان يقود قواته الموجودة فى (يەن ـ كينغ) ويخرج بها على المغول. ولا رأى لنا فيما عسى ان تنتجه هذه الحركة لو اتبعها الامبراطور. ولكن امبراطور الـ(شين) تكبد الكثير لما عملته يده، وجازف به. اذ انه اهدى الى (جنكيزخان) خمسمائة شاب كرقيق، وكثيرا من الفتيات كاماء له، وقطيعا من الجياد الفاخرة، واحمالا من الحرير والذهب. وتهادن الطرفان، وتعهد الشينيون ان يسمحوا لامراء (لياو) حلفاء الخان بالبقاء فى (لياو ـ تونغ) دون الحاق الاذى بهم او مضايقتهم.

وفوق كل ذلك طلب الخان ، ان يزوجوه امراءة من العائلة المالكة ان صدقوا فى المهادنة، فرفت اليه.

رجع (جنكيزخان) فى ذلك الخريف الى (كوبى) وعند مدخل الصحراء ذبح جموع الاسرى الذين استصحبهم جيشه. وهذه قسوة تقشعر لها الابدان .

«ويظهر لنا ان المغول اعتادوا على قتل الاسرى جميعهم، عندما يولون وجوههم شطر بلادهم بعد كل معركة، الا الفنانين والعلماء منهم، ولهذا لا يشاهد من الرقيق الا القليل فى ذلك العهد فى بلاد المغول . ان حشدا من الاسرى الجياع السائرين على الاقدام لا يقدرون على قطع شواسع القواحل المحيطة بمواطن الرحل ، والمغول عوضا عن اطلاق سراحهم، ينبذونهم

للقضاء عليهم، كما تنبذ نحن الاردية الخلقة. فلاقيمة لحياة البشر فى نظر المغول الراغبين فى قطع دابر الاهليين من البلاد الخصبة لجعلها مراعى الى قطعانهم. ومن دواعى فخرهم وتباهيهم، ان يقطع فارسهم الابعاد دون ان يمر جواده على اثر من الكثير من مدن (كاثاى)، بعد انتهاء الحرب معها».

وليس من المؤكد ان (جنكيزخان) كان يقصد التخلى عن (كاثاى) وتركها مطمئنة بسلام . ولكن الامبراطور الذهبى عمل كما شاء، وكما اقتضته الظروف. اذ انه ترك ابنه الاكبر فى (يەن ـ كينغ) وهرب الى الجنوب، وقد اعلن ارادته الامبراطورية هذه :ـ

«اننا نعلن لرعايانا باننا سننقل مقرنا الى عاصمة الجنوب».

انها لحركة خاسرة واهية اراد بها المحافظة على كرامته وشرفه. فمشاوروه وحاكم (يەن ـ كينغ) ووجوه الـ(شين) العريقون فى الحسب تضرعوا له واسترحموه، بالا يتخلى عن شعبه. ولكنه تخلى وذهب، فخلف الاختلال والاضطراب من بعده.

الفصل العاشر

عودة المغول

هرب امبراطور الـ (شين) مع حاشيته من المدينة الامبراطورية، تاركا في البلاط نجله، ووريثه الصورى. فهو لم يشأ ان يتخلى عن قلب مملكته دون ان يبقى في (يەن ـ كينغ) ممثلا له، ودون ان يترك شارة لحكمه فيها، متمثلة بشخص من سلالته يظهر امام الرعية. وكانت (يەن ـ كينغ) محمية بحامية قوية.

ولكن الفوضى التى تنبأ بها وتوقعها الشيوخ الوجهاء، اخذت تتطور وتفكك قوات الـ (شين) المسلحة. وقد عصى البعض من وحدات الجيش التى كانت في حراسة الامبراطور وانفصلت للالتحاق بالمغول.

وفي المدينة الامبراطورية ذاتها ثارت ثورة عجيبة، حيث اجتمع الامراء الوارثون والموظفون والحكام، وجددوا عهد ارتباطهم بالسلالة الامبراطورية وخدمتها. لقد هجرهم الامبراطور، ولكنهم قرروا الولاء له والاستمرار على الحرب بـانفسهم. وتحشد جنود (كـاثاى) البواسل في الازقة والطرق حاسرى الرؤوس، تحت الامطار، فاقسموا الايمان وقطعوا العهود لاتبـاع الوريث الصورى واتبـاع الاشراف مهمـا اخبـأ لهم الدهر. ولكن روح الاخلاص العريقة الصميمة التى تجلت في هذه الاونة، اختفت وخمدت ثانية بهروب الامير الضعيف الجنان.

لقد اوفد الامبراطور الرسل الى (يەن ـ كينغ) يستدعى نجله الى الجنوب، فاحتـج الشيوخ، وقـالوا للامـير «لا تذهب، ولا تفعـل ذلك». ولكن الامبراطور عنيد صلب الرأى، وارادته ما زالت قانون البلاد الاعلى المطاع، ولذلك غادر الوريث الصورى المدينة الامبراطورية. ولم يبق في (يەن ـ كينغ) الا بعض نساء العائلة وحكام المدينة القديمة والطواشى والجنود. والتهبت في الوقت ذاته الشعل التى اشعلها الوجوه الغيارى في النفوس،

فتوسعت الى حرائق ساخطة، فهاجموا حاميات المغول وستاراتهم، وارسلوا جيش تعزيز وتقوية الى منطقة (لياو ـ يانغ) التي اصابها الكثير من الشقاء والبؤس. وقد نجح هذا الجيش نجاحا غير منتظر، وانتعشت الروح فيه، واستنارت من تلك اللهب.

ولما علم الغزاة المتراجعون بهذا التطور المفاجيء اوقف (جنكيزخان) مسيره منتظرا الاخبار المفصلة من الجواسيس والضباط الذين كانوا مسرعين في اللحاق به.

وعندما وقف على كنه الامر وعلم بما وقع العلم الصحيح، قام بما يجب عمله من فوره. فأرسل فرقة من اقوى فرقه حينذاك الى الجنوب نحو النهر الاصفر مزودة باوامر تقضي بمطاردة الامبراطور المنهزم.

وكان الموسم شتاء، ولكن المغول اندفعوا مسرعين فضايقوا سيد الـ(شين) الذي اضطر على عبور النهر، والانسحاب في منطقة اعدائه القدماء الـ(سه‌نغ). ولازم المغول اثره فاخذوا يطاردونه حتى في هذه الناحية من الارض، وهم يتحسسون طرقهم في الجبال المكسوة بالثلوج، ويعبرون الاخاديد والمهاوي فيها متخذين من الرماح واغصان الاشجار المخزومة بالسلاسل جسورا وقناطر. وفي الحقيقة توغلت هذه الفرقة في بلاد معادية توغلا بعيدا امست من بعده في عزلة عن جيشها. وبالرغم من ذلك فانها ما زالت تتعقب آثار الامبراطور المنهزم الذي التجأ الى بلاط الـ (سه‌نغ) واستغاث به. وارسل الخان الرسل وراء الفرقة التائهة وأمرها بالعودة. فتمكنت من التملص بطريقة من الطرق، واستدارت استدارة واسعة حول مدن الـ (سه‌نغ) فعبرت النهر الاصفر المنجمد ونجت.

وارسل الخان (جه‌به، نويون) مسرعا الى (كوبى) ليطمئن الرؤساء، كما واوفد (سوبوتاى) للاطلاع على الموقف. فغاب هذا الاورخان عدة اشهر، ولم يرسل الا التقارير الاعتيادية عن حالة جياده. ويظهر انه لم يجد امرا ذا بال عندما كان في شمال (كاثاى)، اذ نجده قد رجع الى الجيش حاملا معه اخبار خضوع (كوريا) الى الخان. فعندما ترك (سوبوتاى) وشأنه، استكن

واحاط بخليج (لياو-تونغ) ليجوب فى بلاد جديدة • وميله هذا للتجوال والاستطلاع عندما يعهد اليه بقيادة مستقلة مما صب الكوارث والمصائب على اوروبا بعد حين من الزمن•

بقى الخان شخصيا مع نواة الجيش قرب السد العظيم• وكان فى الخامسة والخمسين من عمره• وقد ولد حفيده (كووبيلاى) فى بيوت (كوبى)، التى لم نعد نرى آثار خيام اللباد فيها•

لقد ترعرع انجاله واصبحوا رجالا• ولكنه فى هذه الازمة عهد بقيادة فرقه الى الآخرين اى الى قادة الجيش المجربين، الى الرجال الذين لا يخطئون، والذين لا تفتقر فضائل كفاياتهم العريقة الى توجيه او عقاب• انه علم (جه‌به،نويون) و(سووبوتاى) كيفية استخدام فرق الخيالة• كما وانه جرب واختبر (موهوولى) المحنك•

وهكذا نرى ان جنكيزخان مكث فى مقره متطلعا الى مشهد سقوط (كاثاى)، وصاغيا الى تقارير ورسائل المراسلين الفرسان الذين كانوا يجيؤن اليه بها وهم يأتون ويرجعون حضرا دون ان يترجلوا لطبخ الطعام او للنوم•

و(موهوولى) هو الذى وجه الهجوم على (يه‌ن ـ كينغ)، وقد ساعده فى ذلك (مين‌كان) وهو امير من امراء (لياو ـ تونغ) • وقد سار بخمسة آلاف مغولى وعقب آثار خطوات الامبراطور شرقا، وكان يجمع كلما تقدم ، الجموع من الهاربين الكاثائيين، وجماعات المحاربين المتشردين• اما (سووبوتاى) الذى كان يحوم حول جناحه، فقد نصب خيامه امام الاسوار الخارجية من (يه‌ن ـ كينغ)•

وبالرغم مما كان فى (يه‌ن ـ كينغ) من الرجال لمقاومة الحصار مقاومة ناجحة، وبالرغم من المؤن والذخائر والاسلحة الكثيرة ومعدات الحرب الوفيرة، كان النظام بين الكاثائيين مختلا اختلالا شديدا سلب منهم الكفاية والقدرة على الدفاع• فعندما بدأ القتال فى الضواحى هرب احد قادة الـ(شين) ، فأخذ نساء ادارة القصر الامبراطورى يتوسلن اليه ليستصحبهن معه، ولكنه تركهن

يتخبطن فى الظلام • وبدأ السلب فى الشوارع التجارية، وأختلط النسوة البائسات ولا معين لهن بين جموع الجنود الصارخة الفزعة •

ثم اعقب ذلك شبوب النيران وتعالى لهبها فى الانحاء الكثيرة من المدينة • فكنت تشاهد فى البلاط، الطواشى والعبيد وقد حاروا فى أمرهم ، يتجولون فى الممرات وراحات أيديهم مملؤة بحلى الفضة والذهب • لقد خلا بهو الاستقبال، وغادر الحراس مراكزهم لينضموا الى الناهبين والسالبين•

وكان قد استلم قبل مدة قليلة (وانغ ـ يان) الآمر القائد الآخر، وهو أمير من الامراء فى الدم، براءة من الامبراطور المنهزم يمنحه بها سلطة العفو عن كل المجرمين والمسجونين فى (كاثاى)، وتزيد العطايا الى الجنود • وهذا آخر سهم طائش او آخر تدمير فاسد • فالسهم لم يصب الهدف، والتدبير لم ينفع (وانغ ـ يان) الجندى ولم يفده•

لقد انقطع الرجاء • ولكن نزولا عند التقاليد والعادات يتحتم الآن على القائد الآمر ان يتأهب للموت • انه انسحب الى غرفته وكتب عريضة الى الامبراطور ذاكرا بها جرمه الذى يستحق عليه الموت، اذ فشل فى الدفاع عن (يهن ـ كينغ)•

كتب هذا الوداع ، كما يمكن لنا تسميته ، على طية صدر ثوبه • ثم استدعى خدمه فوزع عليهم كل أرديته وثروته ، وامر الحاكم الذى فى خدمته ليحضر له كأسا من السم ثم استمر على الكتابة•

طلب (وانغ ـ يان) من اصدقائه ان يتركوه وحيدا فى الغرفة، ثم تجرع السم• و (يهن ـ كينغ) التهمتها النيران واللهب، ودخلها المغول وهى فى كارثة لا مرد لها •

اما (موهوولى) المحتذى الاساليب، فلم يعبأ ولم يتحسس لذلك، بل انهمك فى جمع خزائن المدينة ومؤنها وذخائرها وبارسالها الى الخان •

ومن بين الاسرى الذين اوفدهم (موهوولى) الى الخان أمير من امراء (لياو ـ تونغ) ، كان فى خدمة الكاثائيين ، وهو طويل القامة ذا لحية مدلاة

حتى محزمه • وقد جلب هذا الامير انتباه الخان اليه بصوته الرخم الجهورى فسأله عن اسمه، فعلم انه (يى ـ ليو ـ جوتساى) ثم اردف الخان وسأله:ـ

«ولماذا التزمت البقاء مع ملك هو عدو بيتك القديم» فأجابه الامير الفتى:ـ

«كان والدى فى خدمة الـ(شين) وكذلك كان الآخرون من عائلتى•• وليس من الصواب ان اعمل غير ما عملوا» •

ارتاح المغولى لهذا الجواب وقال :ـ

«انك خدمت سيدك السالف بصدق، وانت اهل لخدمتى بصدق، فكن من رجالى » •

اما الآخرون الذين تخلوا عن مليكهم وهربوا فأمر بقتلهم اعتقادا منه انهم لا يستحقون الاعتماد • و (يى ـ ليو ـ جوتساى) هو الذى قال الى الخان بعد زمن :ـ «انك تغلبت على امبراطورية عظيمة وانت على صهوة الجواد• ولكنك لا تتمكن من ادارتها وانت على صهوة الجواد ايضا•»

فسواء أرأى المغولى الفاتح الحقيقة فى ذلك، ام انه ادرك ان له بين الكاثائيين المثقفين وسائل خطيرة لا تقل خطورتها عن آلاتهم الحربية القاذفة الاحجار والنار ، فأنه سمح لنفسه ان تتصح• وقد نصب الحكام على مناطق (كاثاى) المغلوبة من بين رجال (لياو ـ تونغ)•

ويظهر انه قد ادرك ان بلاد (كاثاى) الخصبة المأهولة لا يمكن قلبها يابا ومراعى يرغب فيها المغول • ولكنه ازدرى واستخف فى الصناعات التجارية الصينية، وفى فلسفتهم وسلطة كهنوتهم على العبيد والنساء • واعجب فى شجاعة الحكام الذين استمروا على الحرب بعد هروب سيدهم، وتوسم المنافع له فى جلادة وحكمة هؤلاء الرجال• ومن هؤلاء الرجال (يى ـ ليو ـ جوتساى) الذى يعرف اسماء النجوم ويخبر بوعدها ووعيدها•

وهو عندما نقل خزائن المدن الى (قاراقوروم) ، استصحب معه ايضا اعضاء مجمع (كاثاى) العلمى • وعهد الى (مووهوولى) بالحكومة العسكرية فى ايالاته الجديدة ، وباخضاع الـ(سه نغ) فى المستقبل، بعد ان مدحه واثنى عليه على مسمع من الجمهور ، وسلمه لواء مزوقا بتسعة ذيول من ذيول

الـ(ياق) البيضاء، وخاطب رجاله المغول قائلا : «عليكم بالخضوع لاوامر (مووهوولى) فى هذه الاصقاع ، واطاعتها كما تطاع اوامرى، ويخضع اليها».

فلا يمكن ان يعهد الى (مووهوولى) بمنصب أرفع من هذا المنصب . و(جنكيزخان) كما هو ديدنه، تمسك بعهده له فتركه مع قطعاته من الجيش فى مقاطعته الجديدة وشأنه، دون تدخل، ودون اقلاق له.

فلم اتخذ المغولى هذه الخطة من العمل ؟ هذا امر يستحق الملاحظة والتفكير . انه اراد العودة الى تعزيز حدوده الغربية ، تعزيزا لاريب ولا شك فيه. ويظهر انه ادرك ان اخضاع الصين بكاملها امر يفتقر الى الاعوام الطويلة. ومما لا ينكر ان اهتمامه فى الارض الاجنبية تضاءل بعد اخضاعها اخضاعا عسكريا .

الفصل الحادى عشر

قارا قوروم - الرمال السوداء (قاراقوروم)

لم يقطن جنكيزخان كما فعل غيره من المنتصرين، اترف قسم من مملكته الجديدة (كاثاى)• اذ بعد عوده السد العظيم عقب الاستيلاء على الـ(شين) لم يعد اليه ثانية•

لقد سلم زمام امور الحرب الى (موهوولى) فى تلك البقاع، وخف راجعا الى النجود القاحلة التى ولد فيها، وورثها بحكم الولادة•

وقد اسس مقره فى هذه النجود، الا انه اختار مدينة (قاراقوروم)، الرمال السوداء ، من مدن الصحراء موطنا له•

وفى (قاراقوروم) جمع كل شىء يرتاح اليه ويرغب فيه البدوى الراحل• و(قاراقوروم) مدينة عجيبة فى بابها، فهى عاصمة البرارى، ومصفع الرياح ومكسح الرمال، شيدت بيوتها من الطين والقش، أما طرقها وازقتها فلا انتظام ولانظام فيها، وقد ارتفعت من حولها قبب خيام اللباد السود•

لقد انقضت وولت سنون الفقر والتشرد، فهذه الاسطبلات الواسعة وهى تحتوى على مرابط لقطعان الخيول الاصيلة الممتازة من جياد الخان، وها هى مداخر الحبوب والغلال وقد امتلأت بها لاتقاء ايام المجاعات والقحط ، وانك لتجد فيها الذرة والرز للرجال، والعلف من التبن للخيل• وهناك بيوت الضيافة وقد فتحت لايواء السواح والسفراء الزائرين الوافدين من انحاء آسيا الشمالية برمتها •

قدم الى (قاراقوروم) التجار العرب والاتراك من الجنوب ، ووضع (جنكيزخان) اساليب المتاجرة معهم• فانه لم يمل الى المساومة فى اساليبه• فان مال التجار للمساومة معه، صادر اموالهم دون عوض• هذا وان سلموا كل ما لديهم الى الخان، نالوا منه الهدايا الثمينة، ولهم فيها المكاسب الوفيرة•

وتجد فى (قاراقوروم) حى لارباب الدين ، عدا حى السفراء • ففى

هذا الحي تظلل معابد البوذيين القديمة الجوامع المشيدة من الحجر، وكنائس النسطوريين الصغيرة المقامة من الخشب. فالناس احرار فيما يعبدون ، طالما هم منقادون الى قوانين الـ(ياصا) والى نظامات معسكرات المغول.

واذا ام الضيوف استقبلهم ضباط المغول في الحدود، فيوفدونهم ومعهم الادلاء الى (قاراقورم)، وقد سبقتهم اخبار مجيئهم، يحملها اليها المراسلون الدائبون في اعمالهم على طرق القوافل. واذا ما اقترب الضيوف من القطعان الراعية، وقبب الخيام السود وصفوف العجلات في السهل الاجرد المنبسط حول مدينة الخان «استلمهم سيد القانون والعقاب» وامسوا تحت رعايته.

ونزولا عند عادة من عادات الرحل القديمة، على الضيوف ان يمروا من بين نارين عاليتي اللهب. ولا يصيبهم ضرر من ذلك في الغالب. ولكن المغول يعتقدون ان النار تلفحهم اذا كانت الخباثة منطوية فيهم. ثم تخصص لهم المساكن ويقدم لهم الطعام، ومتى ابدى الخان رضاه، قادوهم الى ديوان المغولي الفاتح.

وينعقد ديوان الخان في سرادق مرتفع من لباد ابيض مبطن بالحرير. وعند مدخل السرادق منضدة فضة صفت عليها اطباق حليب الافراس والفواكه واللحوم ليتناول منها من يزوره ما يشاء. وفي الجانب الابعد من الصيوان يجلس الخان على اريكة غير عالية والى يساره على مرتفع اوطىء تجلس (بوورتاي)، او عقيلة اخرى من عقيلاته.

ويحضر مجلسه بعض الوزراء، وقد يكون (يي ـ ليو ـ جوتساي) احدهم وهو في اردیته المطرزة، موقرا مهابا بلحيته الطويلة، وصوته الرخم، وكاتب اويغوري ومعه سجل وفرش، وتويون مغولي (*) ملقب بحامل الكأس الفخري. ويجلس الوجوه الاخرون على مقاعد على طوار جدران السرادق، وهم في سكوت محتشم، لابسون المعاطف الملبدة ذات الازرار المدلاة ،

(*) (تويون) او الـ (توئيون) هو قائد فرقة او (تومان) مؤلفة من عشرة الاف جندي، وقد تأتي عند الكلمة للتعبير عن (وجيه) او (شريف)، او (أمير).

والقلنسوات المخروطية. فهذا هو لباس القوم الرسمي الاعتيادي. وفي وسط السرادق تتأجج نار الشوك والروث.

وقد يلج التراخين، وهم اقرب المقربين، السرادق متى شاؤوا، فيجلسون القرفصاء في مجالسهم وايديهم المتدبة فوق ركبهم؛ ركب الفرسان البواسل. وقد ينظم اليها الاراخين. وقادة الفرق وهم يحملون عصيهم؛ عصى القيادة. اما الكلام فهمس. ويجب ان ينقطع الهمس ايضا، اذا ما تكلم الخان.

فاذا قال الخان كلمته في الموضوع تم امره. وليس لاحد ان يضيف على ما يقول. فالنقاش زيوغ عن الادب، والمبالغة زلة اخلاقية. اما الكذب فأمر يعود معالجته الى سيد العقاب. والكلمات قليلة، وجيزة، صادقة لا شائبة فيها.

والمتوقع من الغرباء ان يستصحبوا معهم الهدايا، فتسلم منهم وتقدم الى الخان قبل دخولهم عليه، وبصحبتهم رئيس الحفر اليومي. وبعد تسلم الهدايا يفتش الضيوف للتأكد من عدم حملهم السلاح، ويحذرون لكي لا يمسوا دعائم السرادق او امراس الخيمة، اذا كان المأوى خيمة. واذا ارادوا التكلم مع الخان، عليهم ان يجثوا قبل الكلام. واذا دخلوا الخيمة ليس لهم ان يخرجوا منها الا اذا امرهم الخان.

و(قاراقوروم)، وقد انطمرت الان، وتلاشت معالمها تحت كثبان (كوبي)، سيطرت عليها ارادة صلبة. فالرجال الذين يأمون المضرب، يمسون خدم سيد العروش والتيجان، وليس من اثر لقوانين اخرى فيها.

قال الراهب الجريء الاخ (روبروكيز) «عندما اصبحت بين التاتار، حسبت انني في عالم اخر».

لقد كانت (قاراقوروم) عالما ينقاد لقوانين الـ (ياصا) وينتظر قانطا ارادة الخان. والامور فيها تسير سيرا عسكريا، والاوامر تطاع اطاعة عمياء، وتنفذ بحذافيرها. وسرادق الخان يستقبل الجنوب على الدوام، وفي الجبهة الجنوبية منه ساحة واسعة، والى يمينه ويساره، خصصت المواقع لرجال القبائل. ولقد كانت لهم أماكنهم هذه، كما كان لبني اسرائيل اماكنهم المعينة حول المظلة.

لقد تكاثر عيال الخان. فأنه تزوج عدا (بوورتاى) ذات العينين الزرقاوين، اميرات من (كاثاى) و(لياو) وفتيات من العائلات التركية الملوكية، واجمل نساء عشائر البادية، فانتشرن فى خيامهن فى المضرب وفى خدمتهن الماشطات والحاشيات من شعوبهن.

وفروسية الخان فى تقدير الجمال فى النساء، لا تقل عن فروسيته فى معرفة فطنة الرجال واقدامهم، وفى سرعة الخيل الاصيلة وتحملها. فاذا وصف له مغولى وجه فتاة فاتنة وقوامها من فتيات البلاد المحتلة، وكان ذلك المغولى لا يعرف تماما اين يعثر عليها، اجابه الخان من فوره : «انى واجدها ان كانت فى الحقيقة فاتنة. . »

ويروى عنه حادث مضحك بعد ان رأى رؤية مزعجة فى المنام، والرؤيا هى انه رأى احدى نسائه تتآمر عليه للايقاع به. وكان فى يومه كعادته فى ميدان القتال، فعندما افاق من نومه نادى من فوره «من هو آمر الحرس فى مدخل السرادق».

وعندما اجابه الضابط ذاكرا اسمه، اصدر الخان امره له قائلا «ان المرأة الفلانية لك، وهى هدية منى اليك، فخذها الى خيمتك».

والخان كان يحل المشاكل او الجرائم الاخلاقية بطريقة خاصة به. حدث ان حظية من حظياته استسلمت الى رغبات مغولى من اقربائه . فلما علم بالامر لم يأمر بقتلهما، انما طردهما من مجلسه قائلا : «ان الذنب ذنبى فى اختيارى لنفسى، فتاة لها فطرتها الدنيئة».

وانه لم يعترف بوراثة احد من ابنائه له، الا لانجاله الاربعة من (بوورتاى). فهم كانوا رفقاءه المختارين، وكان يرعاهم رعاية خاصة، وقد خصص ضابطا شجاعا كمرشد لكل منهم. وانه بعد ان اقتنع من خصالهم وكفاءاتهم المتباينة نصب كل منهم منصب الـ(اوردووق)، النسر، او الامراء من الدم الامبراطورى. واصبح لهم النصيب فى وضع وممارسة الامور الاعتيادية.

ونصب (جوشى) نجله البكر، رئيس الصيد، وما زال المغول يلتقطون ويكسبون الكثير من مقوماتهم الحياتية منه. ونصب (جاتاغاى) رئيس او سيد

القانون والعقاب، و(اوغوتاى) رئيس الاستشارة. اما اصغرهم (تولى) فأبقاه فى جانبه ونصبه اسميا رئيس الجيش. و(جوشى) هو والد (باتوو) الذى اوجد (القبيلة الذهب) التى حطمت روسيا.

و(جاتاغاى) هو الذى ورث آسيا المركزية، والذى اصبح حفيده (بابار) اول عظماء مغول الهند، و(تولى) هو والد (كووبيلاى) الذى نشر سلطانه على ارض تمتد من بحر الصين حتى اواسط اوربا.

و(كووبيلاى) الفتى كان احب اولاد الخان له. فأنه اظهر نحوه، وبرهن ازاءه تفاخر الجد بحفيده اذ قال عنه «انتبهوا الانتباه كله الى كلمات الطفل (كووبيلاى)، اذ انها مشحونة بالحكمة»

* * *

وعندما رجع جنكيزخان من (كاتاى) وجد ان النصف الغربى من امبراطوريته الغنية قد تفسخت تفسخا بينا. فالشعوب التركية القوية فى آسا المركزية، محتكرو امبراطورية (قاراختاى) (*) امسوا تحت قبضة (كووجلووك) غاصب موهوب وهو أمير من امراء الـ(نائيمان) كان قد تغلب عليه المغول قبل مدة، بعد معركتهم مع الـ(قارا ايت).

ويظهر ان الـ(كووجلووك) هذا نال شهرته وارتقى بها من باب خيانة رابحة عظمى، اذ تحالف مع رؤساء اقوى منه من رؤساء الغرب الاقصى، وقتل مضيفه خان الـ(كاتاى) السوداء. وعندما احتل (جنكيزخان) ما وراء السد العظيم، شتت الـ(كووجلووك) هذا الـ(اويغور) الاكفياء وقتل خان (آماليق) المسيحى وهو من رعايا المغول. اما الـ(مەركيت) الذين لا ينفكون عن الشغب والاضطراب، فتخلوا عن الجيش المغولى والتحقوا به.

و(جنكيزخان) على اثر رجوعه الى (قاراقوروم) عالج معالجة حاسمة قضية هذا الـ(كووجلووك) وامبراطوريته القصيرة العمر التى اشغلت سلاسل الجبال الواسعة الممتدة من (تيبەت) الى (سمرقند). جهز (جنكيزخان) جيشه

(*) كاتاى السوداء.

بجياد حديثه قوية وساقه على الـ(نائي‌مـان) ، فخـدع المغـول البواسل سيد (كاثاى) السوداء فأخرجوه من موضعه ثم انزلوا به الضربة القاضية(*).

افرز (جنكيزخان) فرقة بقيـادة (سووبووتـاى) لتأديب الـ(مه‌ركيت) واخضاعهم. وعهد بفرقتين الى (جه‌به،نويون) وأمره بغزو الـ(كووجلووك) والاتيان به ميتا .

لاتهمنا الحركات التى انجزها (جه‌به ، نويون) بمهارته المشهود لهـا بين سلاسـل الجبـال. فـانه جلبـا لرضـاء المسلمـين أمن جميـع اعدائه على حياتهم الا الـ(كووجلووك) منهم ، وفتح ابواب معـابد البوذيين بعد ان اغلقتهـا الحرب ، ثم طـارد فوق «سطح العالم» الامبراطور الـذى لم تعمر امبراطوريته اكثر من عام ، الى ان قتله وارسل رأسه الى (قاراقوروم) ، ومعه قطيع من الف جواد من ذوات الغرر البيض ، تلك الجياد التى كان يجمعها المغولى الحازم من اماكنها ، وهو منغمس فى حركاته.

ولو لم يسفر الحادث عن النصر والظفر بالمعركة الاولى ، لاحتمل ان يمسى كارثة على (جنكيزخان) ولكن الحادث كشف عن نتيجتين بينتين. وهما اولا، ان اقرب العشائر التركية المتوحشـة التى تقطن البقـاع الممتدة من (تى‌به‌ت) فالمرتفعـات الى سهول روسيـا ، انضمت الى المغول فاصبحت من جيشهم. وثانيا : ان هذه العشائر الرحل حافظت على موازنة القوى فى آسيا بعد انقراض (كاثاى) الشمالية ، وما زال المنتصرون على أقليتهم.

وقد منحت اعادة فتح معابد البوذيين (جنكيزخان) صيتا آخر ، وشهرة جديدة . فصار الناس من المدينة الجبلية حتى معسكرُ الوادى يذكرونه انه المنتصر على (كاثاى) . وان نفوذ (كاثاى) البوذية، الواسع الذائع، اخذ ينطوى تحت ظل شخصه . هذا واخذ رجال الدين الاسلامى المتخذلون يشكرون

(*) ان امبراطورية الـ(كووجلووك) اشتملت على ما اصبحت بعد ذلك اواسط ممتلكات (تيمورلنك) . وان الحركات العسكرية التى اسفرت عن قهر الـ(نائى‌مان) والـ (قاراخيتائيين) واخضعتهم كانت حركات واسعة النطاق. واننا اوجزناها هذا الايجاز اذ لم يشترك (جنكيزخان) شخصيا بها.

الله والمغولى، اذ لم تنصب عليهم جامات الغضب علاوة على عفوهم من الاعشار والضرائب . أجل ، لقد جعل الخان الكهان البوذيين والعلماء المسلمين والـ (لاما) على قدم واحد من المساواة فى اشرس مسرح من مسارح العداء الدينى تحت قمم (تى‌بەت) المكسوة بالثلوج . فانه ساواهم، ولكنه انذرهم بقوانين الـ(ياصا) . وقد ظهر رسل الخان ، الكاثائيون الملتحون وهم يرددون قانون الفاتح الجديد ، ويبلغون الاوامر الصريحة الخالية عن الغموض والتعقيد. فانهم كانوا يرددون ، ويبلغون ذلك ويبذلون ما يبذلون ليخففوا الوطأة عن (كاثاى) من وراء (موهوولى) ذى الارادة الحديدية.

وقد انحدر احد السعاة حضرا من نياسم القوافل الى (جەبه ، نويون) العظيم ليخبره بوصول الجياد الالف ، وبكلمة من الخان هى : «اياك وان تغتر بالنصر ! »

وسواء اقاسى العذاب ام لم يقاسه ، فأن (جەبه ، نويون) ذهب ليجمع المحاربين تحت سلاسل (تى‌بەت) .وانه لم يرجع الى (قاراقوروم)، اذ ان هنالك اعمال اخرى، كانت تنتظره فى جهات اخرى من العالم .

وقد انتج تحطيم الـ(كووجلووك) انسدال ستار الهدوء على شمال آسيا، اسدالا فوريا كما ينسدل ستار المرسح. واصبحت البلاد من الصين حتى بحيرة (آرال) لسيد واحد. ولم يبق للقلاقل من اثر. واصبح رسل الخان يغيرون على جيادهم فى بقاع تمتد الى خمسين درجة فى الطول . وقيل ان العذراء التى تحمل كيسا من الذهب اصبح من المتيسر لها ان تسافر لوحدها من الجانب الواحد من الامبراطورية القبلية الى الجانب الآخر منها دون ان يمسها ضرر ، او ان يلحق بها سوء ، او اذى.

ولكن المنتصر الطموح لم يقتنع بالنشاط الادارى وحده القناعة كلها. وقد امسى لايروق له الصيد شتاء فى البرارى. ففى يوم من الايام وهو فى سرادقه فى (قاراقوروم) سأل ضابطا من ضباط الحرس عما هو اقوى البواعث لاعظم السرور فى العالم اجمع، فاجابه الضابط بعد تامل قليل :ـ

«سهل فسيح ، ويوم صاف ، وجواد عزوم وصقر فوق المعصم متحفزا للانقضاض على الارانب . . » ولكن الخان اجابه :ـ

«لا . لا . انما هى تحضيم اعدائك ورؤيتهم يتساقطون على قدميك، وسلبهم خيولهم واموالهم . وسماعك عويل نسائهم ونحيبهن . وهذا هو الافضل ..»

كان (جنكيزخان) سيد العروش والتيجان وكان المصيبة فى الوقت ذاته. وهكذا كانت حركته الثانية فى زحف آخر نحو الغرب، اذ كان زحفا مخيف الآثار، والعواقب وقد تغلب فيه بطريقة فذة.

obeikandl.com